# نجاح الاقتصاد الإسلامي في إرساء قواعد حماية البيئة بينما تفشل المؤتمرات العالمية

أ.حليمة السعدية قريشي(جامعة تبسة)

أ.سعدية محبوب (جامعة تبسة)

halimasaadiakorichi@yahoo.fr

## 1-مقدمة

إن العالم المعاصر وهو يواجه خطر التلوث البيئي والتدمير المتعمد المعاصر للمصادر الطبيعية قد اتجه إلى سن القوانين والمعاهدات الإقليمية والدولية التي تجرم وتحرم الإضرار بالبيئة في شتى مكوناتها وتدعوا الدول إلى التكاتف من اجل حماية البيئة والموارد الطبيعية، ولكن ذلك غير مفيد في كثير من الأحيان نظراً لاصطدامه بمصالح الدول والأفراد التي لا تقيم وزناً لهذه المعاهدات إما بتجاهلها أو الانسحاب منها كما فعلت أمريكا بمعاهدة كيوتو ، وهذا الأمر أدى إلى تفاقم وأخطار التلوث وتدمير المصادر الطبيعية.

ولما كانت الدولة الإسلامية الأولى قد بلغت من القوة أن حطمت القوتان المتنازعتان على العالم في ذلك الوقت وهما الفرس والروم، ولم يكن هذا النجاح عفويا وإنما كان بناء على نظم سياسية واجتماعية واقتصادية طبقت في ذلك الوقت مستمدة أساسا من الشريعة الإسلامية.ولما كان الإسلام خاتم الرسالات السماوية وكان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الإسلام وخاتم الرسل والأنبياء للبشر في جميع أنحاء العالم فالنظم آلتي جاء بها الإسلام لا تقتصر على عصر معين ولا دولة معينة وإنما هي دستور الهداية الإلهية للإنسانية في أي مكان وفى أي زمان. وإذا ميزنا نظام اقتصاديا بأنه إسلامي فمعنى ذلك أنه وفقا للشريعة الإسلامية، والشريعة الإسلامية هي شريعة الدين والدنيا فلم تقتصر على قوانين الأخلاق والعبادات وعلاقة الإنسان بخالقه فحسب بل تناولت أيضا الروابط الاجتماعية وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان وعلاقته بالدولة وبالمجتمع الإنساني وحددت قواعد اكتساب العيش وشكل المعاملات المالية والسلوك الاقتصادي، كما اهتمت بموضوع البيئة وأكدت على المحافظة على كل مكوناتها ذلك أن نهائية هذه الرسالة وعموميتها صفتان ضمنتا للإسلام شموليته لكل مناحي الحياة مادية ومعنوية، وشموليته لكل ما يؤدي به إلى السعادة الأخروية، ولا شك أن البيئة بكل جوانبها تقع ضمن هذه الشمولية إن لم نقل إنها المرتكز فيها، وذلك لأن البيئة هي مسرح تحقيق الخلافة التي خلق الله الإنسان من أجلها، فمالم تتحقق شروط السلامة الكاملة للبيئة لا تتحقق الخلافة التي دعي الإنسان لتحقيقها .

## 2- معطيات الفكر البيئي المعاصر ، وجذورها الإسلامية

لا ينكر أن الفكر البيئي المعاصر قد جاء بعدد من المفاهيم التي تغيرت بها نظرة الإنسان للبيئة ، وهي و إن كانت حديثة الظهور في الغرب فإن جذورها في التراث الإسلامي قديمة وأصيلة .

وعلى سبيل المثال - لا الحصر – نورد هذه المقارنة الموجزة بين بعض المفاهيم التي جاء بها الفكر البيئي المعاصر ، وما يقابلها من الإشارات القرآنية التالية :

**أولا: مفهوم شمولية البيئة :**

لقد ظهر هذا المفهوم إلى الوجود في الستينات متزامناً مع ظهور مفهوم البيئة نفسه. ويعد مفهوم الشمولية إفرازاً للأزمة البيئية التي يعاني منها العالم المعاصر الذي اعتبرت فيه البيئة ولا تزال مجموعة من المكونات القابلة للاستغلال إرضاء لرغبات الإنسان المحضة.

لقد أصبح اليوم مفهوم الشمولية من الناحية النظرية مفهوماً متداولاً في الأوساط العلمية والبيئية. وللتذكير، فإن الاقتراحات التي تقدم بها المفكرون والفلاسفة لصياغة نظرة جديدة للبيئة مبنية كلها على مفهوم الشمولية. وإذا كان هذا الأخير يعد جديداً بالنسبة للإنسان، فإن هذه الجدة تنطبق على الإنسان فقط.

إن القرآن الكريم أشار إلى هذا المفهوم من خلال آيات كثيرة تتحدث عن وحدة الكون. فحينما يتحدث الحق سبحانه وتعالى عن هذا الكون، فإن ذلك يتم من خلال الإشارة إلى المكونات الكبرى، أي الأرض والسماء والماء التي تعتبر حسب علم البيئة الحديث نظماً بيئية ضخمة يتألف منها ما يسمى بالمحيط الحيوي. وفضلاً عن ذلك، فإن العديد من الآيات القرآنية تربط دائما الأرض بالسماء بينما أخرى تشير إلى ما بينهما. فإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن مفهوم الشمولية وارد في القرآن الكريم وهو الشيء الذي توصل إليه العلم في السنين الأخيرة حينما اعتبر الكوكب الأرضي وما يحيط به من أجواء بمثابة نظام بيئي متكامل غير قابل للتجزئة.

إن الآيات القرآنية التي تشير بكيفية أو بأخرى لمفهوم شمولية البيئة كثيرة، منها على سبيل المثال تلك التي يتم فيها الربط بين الأرض والسماء، وأحياناً بين هذين العنصرين والماء.

يقول الحق سبحانه وتعالى :

{ الذي جعل لكم الأرضَ فِراشاً والسماءَ بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمراتِ رزقاً لكم } [1].

{ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهُنَّ سبعَ سمواتٍ وهو بكل شيء عليم }[2] .

{ بَديع السماواتِ والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون }[3].

{ إن في خلق السمواتِ والأرض واختلافِ الليلِ والنهارِ والفلكِ التي تجري في البحر بما ينفعُ الناسَ وما أنزل الله من السماء من ماءٍ فأحْيا به الأرضَ بعد موتِها وبثَّ فيها من كل دابةٍ وتصريفِ الرياحِ والسحابِ المسخَّر بين السماءِ والأرض لآيات لقومٍ يعقِلون }[4].

{ وَسِعَ كُرسِيُهُ السمواتِ والأرضَ ولا يؤُدُه حِفْظُهما وهو العلِيُّ العظيم } [5].

{ ولله مُلْكُ السماواتِ والأرض والله على كل شيء قدير }[6].

{ ألم تروا أن الله سخَّرَ لكم ما في السمواتِ وما في الأرض وأسْبَغَ عليكم نِعَمَهُ ظاهرةً وباطنة }[7].

ويكفي أن نتمعن في بعض الآيات سالفة الذكر لندرك أن مفهوم الشمولية وارد في القرآن الكريم حينما يقول الحق سبحانه وتعالى في الآية 117 من سورة البقرة :

{ بديع السموات والأرض }، أي خالق السموات والأرض غير أن هذا الخلق ليس عشوائياً بل يتم حسب نظام معين.

ومن الآيات التي تشير إلى شمولية البيئة الآية التي يقول فيها سبحانه عز وجل :

{ والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولائك لهم اللَّعنة ولهم سوءُ الدار }[8].

إن هذه الآية تنطبق على الفكر البيئي المعاصر الذي جزأ البيئة، وبالتالي، قطع الأوصال التي تربط بين مكوناتها، الشيء الذي أدى إلى ظهور اختلالات في نظام الترابط الذي يشكل أساساً لاستمرار وبقاء الحياة. وخير مثال يمكن سوقه في هذا الصدد يتعلق بالاختلالات التي يحدثها التلوث في الأوساط الطبيعية. إن التلوث إذا تجاوز حداً معيناً، يكسر التوازن القائم بين مكونات هذه الأوساط ويؤدي على طول المدى إلى موت هذه الأوساط وانقراض الحياة منها. وهذا هو ما يحدث في الأنهار والبحار التي تلقى فيها النفايات المنزلية والصناعية وكذلك في المساحات الخضراء المعرضة للأمطار الحمضية.

ألم يقل سبحانه وتعالى :

{ ظَهَرَ الفسادُ في البرِّ والبحر بما كَسَبَتْ أيدي الناس ليُذيقَهم بعض الذي عمِلوا لعلهم يرجعون }[9].

وكيفما كان الحال، إن مفهوم شمولية البيئة الذي جاء به المفكرون في مقترحاتهم لتغيير نظرة الإنسان المعاصر للبيئة ليس في الحقيقة مفهوماً جديداً. كل ما يمكن قوله هو أن الإنسان يسعى من جديد للعودة إلى الصواب الذي نص عليه القرآن الكريم منذ عدة قرون والذي يقتضي أن تنطلق كل تصرفات البشر من مفهوم شمولية البيئة حفاظاً على وحدة هذه الأخيرة وبقاء الحياة فيها.

**ثانيا: مفهوم التوازن**

إن مفهوم التوازن يشكل واحدة من الركائز التي بني عليها علم البيئة الحديث. والتوازن لا يجب أن يدرك كوضع سكوني قار ومستقر يسود داخل النظم البيئية. فحينما يتم الحديث عن التوازن البيئي، فالأمر يتعلق بوضع حركي مستمر ناتج عن ما يقوم من علاقات وتفاعلات بين مكونات النظام البيئي. فلا سبيل إذن للحديث عن النظام البيئي بدون توازن. فالنظام البيئي المتوازن هو ذلك الجزء من البيئة الذي تسود بين مكوناته علاقات متبادلة متناسقة ومتكافئة تتجدد باستمرار وتؤدي في نهاية المطاف إلى استمرار الحياة وبقائها. وهكذا، فحينما يكون النظام البيئي متوازناً، فهذا يعني أن لديه قدرة ذاتية على التنظيم تكون ناتجة عن الحركة الذاتية التي تشترك فيها كل مكوناته من تربة وهواء وماء وحيوانات ونباتات بمختلف أشكالها وأنواعها. وبعبارة أخرى، فإن كل كائن حياً كان أم غير حي يقوم بعمل لصالحه ولكنه في نفس الوقت يكون عنصراً أو حلقة في سلسلة الأعمال التي تقوم بها الكائنات الأخرى.

فالتوازن البيئي الشامل هو الذي أدخل عليه الإنسان، من جراء فصل نفسه عن البيئة وطموحه للسيطرة عليها، تغييرات كبرى أدت إلى ظهور مشكلات بيئية واسعة النطاق طالت تأثيراتها جميع المحيطات والقارات وأسافل وأعالي الأجواء. إن الإنسان من جراء نظرته الأنانية للبيئة أساء لخاصيات التوازن والتناسق والتناغم التي أسس عليها الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون. بالفعل، لقد أشار الحق سبحانه وتعالى للتوازن في العديد من آيات القرآن الكريم نذكر منها على سبيل المثال :

{ كُلُوا واشْرَبوا من رزق الله و لا تَعْثَوا في الأرض مُفسِدين }[10].

{ ويَسْعَون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين }[11].

{ ولا تُفْسِدوا في الأرض بعد إصْلاحِها وادْعوهُ خَوفا وطَمَعاً إن رحمتَ الله قريبٌ من المحْسنِين } (سورة الأعراف : الآية 56).

{ الشمسُ والقمرُ بحُسْبان والنجمُ والشجرُ يَسْجُدان والسَّمَاء رَفَعَها وَوضَعَ الميزَانَ ألاَّ تَطْغَوْا في الميزان وأقيموا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ } (سورة الرحمن : الآيات 8-5).

{ سَبِّح اسم رَبِّكَ الأعْلى الذي خَلَقَ فَسَوَّى والذي قدَّرَ فَهَدَى } (سورة الأعلى : الآيات 3-1).

إن الآيات سالفة الذكر تشير كلها بطريقة أو بأخرى إلى مفهوم التوازن الذي كما أسلفنا تأسس عليه علم البيئة الحديث. وهكذا تمت الإشارة لهذا التوازن في القرآن الكريم عن طريق مفاهيم :

ــ الفساد ــ الإصلاح ــ الميزان ــ المقدار ــ التقدير ــ الحسبان ــ التسوية

إن الله لا يحب الفساد في كل شيء. والفساد بمعناه البيئي، أي الاضطراب والاختلال والتخريب وعدم التناسق، يمكن أن يكون ناتجاً عن التلوث والاستغلال المفرط وغير العقلاني للموارد واقتحام وغزو

الأوساط الطبيعية. وبعبارة أخرى، إن الفساد ينتج عن التغييرات التي يدخلها الإنسان بدون حسبان على نظام الترابط الذي يضمن الحياة داخل المحيط البيئي. أما الإصلاح، فيمكن ربطه بمفهوم التنظيم الذاتي الذي يضمن استمرار التوازن داخل النظم البيئية.

أما مفاهيم الميزان والمقدار والتقدير والحسبان والتسوية فإنها تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى نظم الأمور ونسقها عند خلق هذا الكون. وعندما يتعلق الأمر بالتنظيم والتنسيق والترتيب. فهذا معناه أن كل شيء يحسب له حسابه. وبعبارة أخرى، فإن الأشياء لا يمكن أن تكون منظمة ومتناسقة إلا إذا قامت بينها عـــلاقات مـــتوازنة تكون ضامناً للنظام والتناسق. فحينما يقول الحق سبحانه وتعالى : { وأنبتنا فيها من كل شيء موزون } (سورة الحجر : الآية 19)، فهذا يعني أن الله وفر في الأرض الظروف الملائمة لنمو العديد من أنواع النباتات المختلفة.

إن مفهوم التوازن الذي أقره علم البيئة الحديث سواء على مستوى النظم البيئية الصغيرة أو على المستوى البيئي الشمولي واحد من المفاهيم البيئية التي وردت في القرآن الكريم منذ عدة قرون. إن الله سبحانه وتعالى خلق الكون موزوناً ومتوازناً وهو الذي يقول :

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ له مَنْ في السمواتِ ومَنْ في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُ وكثيرٌ من الناس } (سورة الحج : الآية 18).

إن سجود الكائنات للحق سبحانه وتعالى إن دل على شيء إنما يدل على وحدة الكون التي يحفظ توازنها خالق مدبر واحد.

**ثالثا: مفهوم محدودية الموارد**

منذ أن دخل العالم عصر الصناعة خلال القرن التاسع عشر الذي اقترن أوله باختراع الآلة البخارية وآخره باكتشاف الكهرباء والنفط ثم باختراع المحرك الانفجاري، بدأ في نفس الوقت التهافت على الموارد الطبيعية وخصوصاً في البلدان الغربية التي كانت تتنافس فيما بينها أولاً للرفع من مستوى إنتاجها واستهلاكها، وثانياً لغزو الأسواق الخارجية بمنتوجاتها الصناعية.

وبصفة عامة، إن القرن التاسع عشر اقترن بظهور مجموعة من الأنشطة الاقتصادية الواسعة النطاق المبنية على استغلال ثروات الأرض ومصادر الطاقة وتحويل المواد الأولية إلى منتوجات مصنعة. ولا سبيل للذكر أن أهم الصناعات التي يرتكز عليها الاقتصاد العالمي اليوم نشأت في تلك الفترة نذكر من بينها على سبيل المثال :

ــ الصناعة الثقيلة التي تحول المواد الأولية المعدنية إلى فليزات تستعمل في عدة أنواع أخرى من الصناعات،

ــ الصناعة الخفيفة التي تحول ما أنتجته الصناعة الثقيلة إلى منتوجات مصنعة،

ــ الصناعة الغذائية التي تصنع وتهيئ الأغذية،

ــ الصناعة الميكانيكية التي تنتج الآلات والمعدات المستعملة في مجالات الصناعة والفلاحة والنقل، الخ.

وجدير بالذكر أن ازدهار الصناعة خلال القرن التاسع عشر في العالم الغربي كان مبنياً على تنافس شديد بين الدول التي كانت ولا تزال تسعى إلى احتلال المراتب الأولى على الصعيد العالمي، الشيء الذي أدى إلى استغلال مفرط للموارد الطبيعية ليس فقط في البلدان المصنعة ولكن كذلك في ما يسمى حالياً بالدول النامية.

إن مفهوم محدودية الموارد الذي ظهر خلال السبعينات وتأكدت صحته خلال الثمانينات هو الذي أدى إلى ظهور مفهوم التنمية المستدامة التي تقتضي أن يتعامل الإنسان مع البيئة ومع مواردها بكيفية تضمن حاجاته الآنية وحاجات الأجيال المقبلة في نفس الوقت.

وإذا استطاع الإنسان، بفضل ما أتاه الله من علم، أن يقف على هذه الحقيقة، فإن القرآن الكريم أشار غير مرة لمفهوم محدودية الموارد من خلال الآيات التالية :

{ وعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يعلمُها إلا هو ويعلمُ ما في البَرِّ والبحر وما تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ في ظلمات الأرض وَلارطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتابٍ مبينٍ } (سورة الأنعام : الآية 59).

{ الله يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كلُّ أنْثى وما تَغِيضُ الأرحامُ وما تَزْدَادُ وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار}[12].

{ وكلَّ شيءٍ أحْصَيْناهُ في إمامٍ مبينٍ } (سورة يس : الآية 12).

{ وجعل فيها رواسِيَ مِن فَوْقِها وبَارك فيها وقدَّرَ فيها أقْوَاتَها في أربعةِ أيَّامٍ سواءً للسائِلين }[13].

{ ولو بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعباده لَبَغَوْا في الأرض ولكن يُنَزِّل بِقَدَرٍ ما يشاء إنه بِعباده خبيرٌ بصيرٌ }[14].

{ إنَّا كلَّ شيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَر } (سورة القمر : الآية 49).

{ وأحْصَى كلَّ شَيءٍ عدَدا } (سورة الجن : الآية 28).

{ قدْ جعل الله لكلِّ شيءٍ قدراً } (سورة الطلاق : الآية 3).

{ وكلَّ شيءٍ أحْصَيْناه كِتابا } (سورة النبإ : الآية 29).

من خلال الآيات السالفة الذكر، يشير سبحانه وتعالى إلى مفهوم محدودية الموارد من خلال مفهومي المقدار والقدر. يقول الحق سبحانه وتعالى : { إنا كل شيء خلقناه بقدر } (سورة القمر : الآية 49) أي أن كل كائن حي أم غير حي يخضع لقانون أو لقوانين معينة من حيث الكم. والفرق الذي وضعه الإنسان بين الموارد الطبيعية المتجددة والموارد الطبيعية غير المتجددة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم محدودية الموارد الذي يشير إليه القرآن الكريم.

فبالنسبة للموارد الطبيعية غير المتجددة، لقد أثبت العلم الحديث أنها فعلاً محدودة الكمية كما هو الشأن بالنسبة للمواد الطاقية الأحفورية (فحم، نفط، غاز طبيعي) والانشطارية (أورانيوم، طوريوم، الخ) والمعادن الفلزية كالحديد والنحاس والمعادن غير الفليزية كالفوسفاط والبوتاس الخ. أما بالنسبة للموارد الطبيعية المتجددة، فهي الأخرى توجد في البيئة حسب كميات محدودة لكنها تتميز عن الموارد غير المتجددة، بكونها تتجدد بكيفية طبيعية حسب دورات معينة كما هو الشأن بالنسبة للماء والنباتات والحيوانات البرية والموارد البيولوجية المائية والطاقة.

يقول الحق سبحانه وتعالى :

َ}وأنْزَلْنَا من السماءِ ماءً بِقَدر فأسْكناه في الأرضِ وإنَّا على ذهابٍ به لقادِرون}[15].

لقد أصبح اليوم معروفا أن كمية الماء التي يتكون منها المحيط البيئي محدودة حيث تقدر بـــ 1.350 مليون كيلومتر مكعب موزعة كالتالي :

الماء السائل ـــ المحيطات ـــ المياه الجوفية ـــ بحيرات الماء العذب ـــ بحيرات مالحة وبحار داخلية ـــ ماء التربة ( الرطوبة) ـــ مجاري المياه _الماء الصلب _الجليديات القطبية ـــ جليديات المناطق المعتدلة والاستوائية _الماء الغازي ـــ بخار الماء الجوي ـــ ماء المحيط الحيوي ـــ ماء الكائنات الحية

وإذا كانت الموارد الطبيعية محدودة الكميات، فهذا يعني أن كمية العناصر الكيميائية التي تتكون منها هذه الموارد هي الأخرى محدودة.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن علماء الكيمياء عندما يتعاملون مع المادة، يعرفون أن كمية هذه المادة لا تزيد ولا تنقص رغم التحولات التي تمر منها. وهذا هو ما توصل إليه عالم الكيمياء الفرنسي لافوازيي (Lavoisier) في القرن الثامن عشر حين قال : >لا شيء يضيع ولاشيء يضاف، الكل يتحول< ليتخذ أشكالاً مختلفة. وهذا هو ما يجري داخل المحيط البيئي حيث المادة في تحولات مستمرة لتتخذ أشكالاً تتكون منها الحياة وأخرى يتألف منها الماء والهواء والتربة. وقد أشار الحق سبحانه وتعالى إلى هذه التحولات بقوله :

{ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ منها ومَا يَنْزِلُ من السماءِ وما يَعْرُجُ فيها وهو الرحيم الغفور} (سورة سبإ : الآية 2).

**رابعا: مفهوم تنوع الحياة**

إن مفهوم تنوع الحياة أو ما يسمى حالياً بالتنوع البيولوجي مفهوم حديث حيث ظهر إلى الوجود خلال الثمانينات وتم تكريسه في النصف الأول من التسعينات من خلال اتفاقية دولية انبثقت عن مؤتمر ريو سنة 1992.

إن هذا التنوع الهائل في أشكال وأنواع الحياة أشار إليه الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز من خلال العديد من الآيات نذكر منها على سبيل المثال ما يلي :

{ ولله ملكُ السمواتِ والأرض وما بينهما يَخْلُقُ ما يشاءُ والله على كلِّ شيءٍ قديرٌ }[16].

{ وهو الذي أنْزَل من السماءِ ماءً فأخْرَجْنا به نباتَ كلِّ شيءٍ فأخْرَجْنا منه خَضِرا نُخْرِجُ منه حبًّا متراكِباً ومِنَ النَّخْلِ من طَلْعِهَا قِنْوانٌ دانية وجناتٍ من أعنابٍ والزيتونَ والرُّمانَ مُشْتَبِهاً وغير متشابِهِ انْظُرُوا إلى ثَمَرِه إذا أثْمَرَ ويَنْعِهِ إنَّ في ذلكم لآياتٍ لقوم يؤمنون } (سورة الأنعام : الآية 99).

{ هو الذي أنْزَلَ من السماءِ ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لكم به الزَّرْعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كل الثَّمَرَاتِ إن في ذلك لآيةً لقومٍ يَتَفَكَّرُونَ } (سورة النحل : الآيتان 11–10).

{ الذي جعل لكم الأرض مَهْداً وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً وأنْزَل من السماءِ ماءً فأخْرَجْنَا به أزْوَاجاً من نباتٍ شَتَّى } (سورة طه : الآية 53).

{ وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنْزَلْنَا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ وربَتْ وأنْبَتَتْ من كلِّ زَوْج بَهيج } (سورة الحج : الآية 5).

{ والله خَلَقَ كلَّ دابَّةٍ من ماءٍ فمنهم من يمشي على بَطْنِهِ ومنهم من يمشي على رِجْلين ومنهم من يمشي على أرْبَع يَخْلُقُ الله ما يشاءُ إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير } ( سورة النور : الآية 45).

إن القرآن الكريم يعطي أهمية كبيرة لتنوع الحياة حيث يشير إلى اختلاف النباتات والحيوانات. ولو أن أكثر الآيات سالفة الذكر خصصت للتنوع النباتي، فهناك الآية 45 من سورة النور التي تشير إلى التنوع الحيواني. وإن اقتصرت هذه الآية على ذكر البعض من الحيوانات، فإن الله سبحانه وتعالى ينهي هذه الآية بقوله : { يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير } وهذا معناه أن عدم الإشارة إلى جميع أنواع الحيوانات والنباتات في القرآن الكريم يجب أن لا يفسر باقتصار التنوع البيولوجي على ما جاءت به الآيات الكريمة.

إن الله سبحانه وتعالى يقول : { وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها } (سورة إبراهيم : الآية 34). كما يقول سبحانه وتعالى كذلك : { والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون } (سورة النحل:الآية8). فإن دلت هذه الآيات على شيء، إنما تدل على أن الله نوع الخلق لكن الإنسان لم يستطع أن يتعرف عليه كله. وهذا هو ما أثبته العلم اليوم حيث أن عدد أنواع الحشرات مثلاً يقدر ب 30000000 نوع بينما لا يعرف العلماء إلى حد الآن إلا 750.000 نوع. يقول سبحانه وتعالى : { سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون } (سورة يس : الآية 36).

إن مفهوم تنوع الحياة أصبح اليوم يحتل الصدارة في الأوساط التي تهتم بشؤون البيئة. ولا سبيل للقول إن هذا الاهتمام أتى بعد أن أدرك الإنسان الدور الحاسم الذي يلعبه التنوع في استمرار دورة الحياة. وهنا لابد من الإشارة إلى أن مفهوم تنوع الحياة لا يمكن فصله عن مفهومي شمولية البيئة والتوازن. إن التنوع البيولوجي واحد من العوامل الأساس الشمولية التي تساهم في استمرار توازن المحيط البيئي الذي يتكون من الجو ومن سطح القارات ومن ماء المحيطات والبحار إضافة إلى ضوء الشمس والمحيط الذي يتألف من جميع الكائنات الحية.

**خامسا: مفهوم الغائية**

من أهم المفاهيم التي وردت في المقترحات التي تقدم بها المفكرون لتغيير نظرة الإنسان للبيئة، مفهوم الغائية الذي ينص على أن كل كائن حياً كان أم غير حي هو في الحقيقة مركز غائية، أي بمعنى أن هذا الكائن ينزع إلى تحقيق غاية معينة. في هذه الحالة، فإذا اعتبرت الكائنات مراكز غائية، فهذا يعني أنها تتحول من مجرد كائنات مجهولة تتكون منها البيئة إلى كائنات ذات قيمة ذاتية وجودها له مبرر يتمثل في كونها وسائل تتحقق من خلالها غايات معينة.

وإذا وضعنا مفهوم الغائية في إطار بيئي، فقد يصعب على المرء أن يتصور أن كل كائن من ضمن الكائنات التي تتكون منها البيئة والتي تعد بالملايير (عدد البشر وحدهم أكثر من خمسة ملايير) وجد من أجل أن تتحقق من خلاله غاية معينة.

وما يقال بصفة عامة عن الكائنات الحية، يمكن أن يقال عن الكائنات غير الحية أي الجامدة. إن الأمثلة في هذا الباب كثيرة ومتعددة. فإذا تحدثنا مثلاً عن الماء، فسنجد أنه يشكل ليس فقط غذاء بالنسبة لجميع الكائنات الحية ولكن كذلك وسطاً للحياة وعنصراً لتركيب الأجسام ووسيلة نقل داخل هذه الأجسام وعاملاً لتنظيم درجة الحرارة بها، الخ. وما يقال عن الماء، يقال كذلك عن الهواء الذي تشكل غازاته من أكسجين وهيدروجين وأزوت وثاني أكسيد الكربون، إلخ، غذاء للحيوانات والنباتات.

وبصفة عامة، فإن الغايات التي تتحقق من خلال الكائنات الحية و غير الحية متعددة، ومتنوعة، ومتداخلة ومرتبطة بعضها ببعض. لكنها رغم تعددها وتنوعها وتداخلها وترابطها تسعى في آخر المطاف إلى غاية نهائية واحدة ألا وهي وحدة الكون وتوازنه واستمرار الحياة به لأداء رسالة العبودية الخالصة لله.

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من خلال العديد من الآيات نذكر منها على سبيل المثال :

{ تُسَبِّحُ له السمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومن فِيهِنَّ وإن من شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لا تفْقَهون تَسْبِيحَهُم إنه كان حليما غَفُورا } (سورة الإسراء : الآية 44).

{ وله مَنْ في السمواتِ والأرضِ ومن عنده لا يَسْتَكْبِرُون عن عِبَادتِه ولا يَسْتَحْسِرُون يُسَبِّحُون الليلَ والنهارَ لا يَفْتَرُون } (سورة الأنبياء : الآيتان 20–19).

{ ألَمْ تَرَ أنَّ الله يَسْجُدُ له مَنْ في السمواتِ وَمنْ في الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدَّوابُ وكثيرٌ من الناس } (سورة الحج : الآية 18).

{ ألَمْ تَرَ أنَّ الله يُسَبِّحُ له مَنْ في السمواتِ والأرضِ والطيرُ صافاتٍ كُلّ قد عَلِمَ صلاته وَتَسْبِيحَهُ والله عليمٌ بما يفعلون } (سورة النور : الآية 41).

{ يُولِجُ الليل في النهار ويُولِجُ النهارَ في الليل وسَخَّرَ الشمسَ والقمرَ كلّ يَجْري لأجلٍ مُسَمًّى } (سورة فاطر : الآية 13).

{ والشمسُ تَجْري لِمُسْتَقَرٍّ لها ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم } (سورة يس : الآية 38).

{ والنجمُ والشجرُ يَسْجُدان } (سورة الرحمن : الآية 6).

فما هي علاقة هذه الآيات الكريمة بمفهوم الغائية؟ إن هذه العلاقة تشير إليها الآيات التي تتحدث عن التسبيح والسجود. والتسبيح والسجود معناهما هنا طاعة خالق هذا الكون وخضوع كائناته له من خلال ما أنيط بها من مهمات. وقد سبق وأن أشرنا إلى الكائنات الحية عندما تكون منهمكة في البحث والحصول على قوتها، فإنها في نفس الوقت تقوم بمهام تساهم بواسطتها في استمرار الحياة.

يقول سبحانه وتعالى :

{ تُسَبِّحُ له السمواتُ السَّبْعُ والأرضُ ومن فيهن وإنْ من شيء إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لا تفقَهون تَسْبيحَهُم إنه كان حليما غَفورا } (سورة الإسراء : الآية 44).

فعندما يقول سبحانه وتعالى : { وإن من شيء إلا يسبح بحمده }، فهذا معناه أن أي كائن حياً كان أم جماداً قد أناط الله به مهمة تساهم بكيفية أو أخرى في وحدة وتوازن هذا الكون. غير أن الإنسان بنظرته الأنانية للبيئة لم يعط أهمية للمعنى السامي والروحي للتسبيح، بل صب كل اهتمامه على ما يمكنه أن يجنيه من نفع للكائنات ناسياً أن وراء هذا التسبيح غاية سامية تتمثل في احترام ما أناطه الله من مهام بمخلوقاته كافة. يقول سبحانه وتعالى في نفس الآية : { لكن لا تفقهون تسبيحهم } أي أن العباد، عوض أن يتمعنوا في وحدة الكون وفي تناسقه وتناغمه، أعماهم طموحهم للسيطرة على البيئة للاستفادة من جوانبها المادية متجاهلين النهج والنظام اللذين بثهما الله في هذا الكون من خلال كائناته المتنوعة. يقول سبحانه وتعالى :

{ أَلَمْ تَرَ أنَّ الله يَسْجُدُ له مَنْ في السموات ومن في الأرض والشمس والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدَّوَابُ وكثيرٌ من الناس وكثيرٌ حقَّ عليه العَذَابُ } (سورة الحج : الآية 18).

إن دلت هذه الآية على شيء، فإنما تدل على أن الناس صنفان. صنف يحترم غايات الكون والنظام الذي سنه فيه سبحانه وتعالى من خلال المخلوقات، وصنف يتجاوز النهج الإلهي ويحاول أن يطغى ولو أدى ذلك إلى الخراب والدمار. وفي حق هذا الصنف الثاني من الناس، يقول سبحانه وتعالى : { وكثير حق عليه العذاب }.

وحينما يقول سبحانه وتعالى : { ولا تعثوا في الأرض مفسدين }، فإن الله يوصي عباده بأن يحافظوا على نظام البيئة وذلك باحترامهم لمكونات هذه البيئة لتقوم بالمهام التي أنيطت بها.

يقول سبحانه وتعالى : { وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا } (سورة ص : الآية 27) أي أن الله عندما خلق الكون، لم يترك أي شيء للصدفة تتحكم فيه. بل إن الله سن لمخلوقاته نهجاً تسير عليه وتعمل وتؤدي مهامها بموجبه. هذا هو ما يشير إليه سبحانه وتعالى بقوله : { كُلٌّ قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون } (سورة النور : الآية 41).

إن مفهوم الغائية الذي توصل إليه المفكرون حديثاً لم يأت في الحقيقة بجديد. إنه فقط أكد ما نص عليه القرآن الكريم منذ عدة قرون. فحينما يقول هؤلاء المفكرون أن أي كائن حي له في حد ذاته قيمة، فهذا اعتراف بأن هذا الكائن لم يخلق عبثاً، وبالتالي، فالإنسان مطالب بأن يحترم هذه القيمة من خلال هذا الكائن، الشيء الذي يحتم عليه بصفة عامة أن يغير تعامله مع البيئة.

وما أتى به الفكر المعاصر من مفاهيم أكده ولا يزال يؤكده العلم بواسطة الملاحظة والتجريب. والأمثلة هنا كثيرة ومتعددة تخص الجراد والنحل والنمل والطيور والأسماك والثدييات، الخ.

و كيفما كان الحال وكما جاء في قوله تعالى : { كل قد علم صلاته وتسبيحه }(سورة النور: الآية 41)، فإن أي كائن حي وجد في هذا الكون إلا وأنيطت به مهمة أو مهام وحينما يكون منهمكا في أداء هذه المهام، فإنه يخضع للنهج الذي سن عليه الخالق هذا الكون. وهذا هو التسبيح والسجود والصلاة التي أشار إليه الحق سبحانه وتعالى في الآيات الكريمة سالفة الذكر.

غير أنه يبدو أن الإنسان بصفة عامة والإنسان المعاصر بصفة خاصة قد نسي أو تناسى أنه مطالب هو الآخر كباقي المخلوقات أن يسبح ويسجد ويصلي للخالق وذلك بأداء المهام التي أنيطت به ككائن استخلفه الله في الأرض ليؤكد معنى خلقه وغاية وجوده في الكون بدليل قوله تعالى : { وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } (سورة الذاريات : الآية 56). فعوض أن يسير في النهج الذي رسمه الله سبحانه وتعالى، فإنه فصل نفسه عن البيئة وأراد أن يسيطر عليها. إن الإنسان بعمله هذا يسيء لوحدة الكون التي من أجلها سبحت وتسبح لله كل مخلوقات هذا الكون.

وحينما ركز الفلاسفة والعلماء البيئيون على مفهوم الغائية، فإنهم لم يفعلوا شيئاً جديداً سوى أنهم حاولوا أن يعيدوا الإنسان إلى ما بينه الله لعباده البشر منذ عدة قرون.

**سادسا: مفهوم حماية البيئة**

إن مفهوم حماية البيئة حديث العهد حيث تم إدخاله في قاموس المعرفة البيئية خلال أواخر النصف الأول من القرن العشرين. فلا غرابة إذا اقترن ظهور هذا المفهوم بالفترة التي بدأت فيها المجتمعات المعاصرة وخصوصا في الدول المصنعة تعي ما ألحقته تصرفاتها وأنشطتها الصناعية من أضرار بالبيئة.

بالفعل، إن الإنسان بما أدخله من تغييرات ضخمة على النظم البيئية تجاوز إلى حد كبير الفطرة التي خلق الله عليها هذه الأرض، وبالتالي، لم تعد هذه الأخيرة في أكثر من مكان قادرة على استيعاب هذه التغييرات. فإذا أبدى الإنسان بعض الاستعداد لإصلاح ما أفسده، ففي غالب الأحيان، يبقى هذا الاستعداد على مستوى النوايا وليس على مستوى الأفعال.

إن الإنسان رغم النداءات المتتالية والآتية من جميع أنحاء المعمور، لا يزال يتعامل مع البيئة حسب نظرته الأنانية وتفكيره المخطئ الذي يفرز تصرفات مضرة بالبيئة. وخير دليل على ذلك، عدم تحقق كامل أهداف قمة الأرض الثانية التي انعقدت بنيويورك خلال شهر يونيو سنة 1997 والتقدم البطيء الذي تعرفه الاتفاقيات الثلاث التي انبثقت عن قمة الأرض الأولى التي انعقدت بريو سنة 1992 والتي تتعلق بتغيير المناخ والتنوع البيولوجي والتصحر. إن مفهوم حماية البيئة سوف لن يكتب له النجاح ما دام الإنسان المعاصر متشبثاً بنظرته الأنانية للبيئة وما يترتب عنها من أنماط غير عقلانية لاستغلال الموارد ولبناء الاقتصاد والمستوطنات البشرية والمنشآت الصناعية.

إن خروج مفهوم حماية البيئة إلى حيز التطبيق يقتضي أن يغير الإنسان نظرته للبيئة وأن يعود إلى الصواب الذي رسمه له الله في كتابه العزيز. يقول سبحانه وتعالى :

{ الذي جعل لكم الأرضَ مَهْداً وجعل لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون } (سورة الزخرف : الآية 10).

لقد آن الأوان ليسلك الإنسان السبل التي رسمها له الله والمتمثلة في استعمال العلم استعمالاً يليق وما يتطلبه النهج البيئي السليم. في هذه الحالة، يكون الإنسان قد خطا خطوات نحو التطبيق الفعلي لحماية البيئة.

وفضلاً عن كل هذا، فإذا شعر الإنسان المعاصر بضرورة حماية البيئة يجب أن لا يعني هذا أنه في الماضي وفي القرون السابقة لم يكن مطالباً بالقيام بهذه المهمة. بل بالعكس، إن مفهوم حماية البيئة مرتبط بوجود الإنسان على سطح الأرض وذلك لأن الله، من جهة، استخلفه في هذه الأرض، ومن جهة أخرى، لأن الإنسان هو أكثر المخلوقات توغلاً في البيئة واستغلالاً لمواردها. فإذا كان الإنسان المعاصر مطالباً بأن يحمي بيئته أكثر من أي وقت مضي، فإن هذه الحماية واجب ملازم لوجود الإنسان.

إن هذا اللزوم وارد في القرآن الكريم غير ما مرة. فحينما يقول سبحانه وتعالى : { والله لا يحب المفسدين } (سورة المائدة : الآية 64) أو { ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين } (سورة الأنعام : الآية 141) أو { ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها } (سورة الأعراف : الآية 85)، فإنه يدعو الإنسان إلى أن يتجنب الفساد والإسراف لأنهما عاملان من عوامل تخريب البيئة وتدميرها، وبالتالي، فإن الله يدعو هذا الإنسان بصفة غير مباشرة إلى أن يحمي هذه البيئة ويحافظ عليها.

والآيات التي تشير إلى وجوب حماية البيئة من طرف الإنسان كثيرة نذكر منها على سبيل المثال :

{ يا أيها الذين آمنوا كُلُوا من طيِّباتِ ما رَزَقْناكم واشْكروا لِلَّه إنْ كُنْتُم إيَّاهُ تَعْبُدُون}(البقرة : الآية 172).

{ وآتاكم من كلِّ ما سألْتُمُوه وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تحْصُوها إنَّ الإنسانَ لظلومٌ كَفار}(إبراهيم: الآية 34).

{ هو الذي أنْزَلَ مِنَ السماءِ ماءً لكم منه شرابٌ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمون يُنْبِتُ لكم به الزَّرْعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعنابَ ومن كلِّ الثمراتِ إنَّ في ذلك لآيةً لقوم يتفكَّرون } (سورة النحل : الآيتان 11-10)

{ كُلُوا وارْعَوا أنْعامَكُم إن في ذلك لآيةً لأولي النُّهى } (سورة طه : الآية 54).

{ وأنْزَلْنَا مِنَ السماءِ ماءً طَهورا لِنُحْيِيَ به بَلْدَةً مَيْتاً ونُسْقِيَهُ مما خَلَقْنَا أنْعاماً وأناسِيَّ كثيراً ولقد صَرَّفْنَاهُ بينهُم لِيَذَّكَّروا فأبَى أكثرُ الناسِ إلا كُفُوراً } (سورة الفرقان : الآيات 50-49-48)

{ أوَلَمْ يَرَوا إلى الأرضِ كم أنْبَتْنا فيها من كلِّ زوْج كريم إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهُم مُؤمِنين } (سورة الشعراء : الآيتان 8-7).

{ والأرضَ مَدَدْنَاها وألْقَيْنَا فيها رواسِيَ وأنْبَتْنَا فيها من كلِّ زوجٍ بهيج تَبْصِرَةً وذِكْرى لكلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ } (سورة ق : الآيتان 8-7).

إن الله حين منح لعباده خيرات الأرض ومنافعها، فقد خول لهم فقط حق الانتفاع، وحق الانتفاع هذا يحتم على المنتفع كلما حصل على نفع أن يصون مصدر الانتفاع ويحافظ عليه ليستفيد منه في الحاضر والمستقبل.

يقول الله سبحانه وتعالى :

{ والأرضَ بعد ذلك دَحاها أخْرَجَ منها ماءَها ومَرْعاها والجبالَ أرْساها مَتاعاً لكم ولأنْعَامِكُم } (سورة النازعات : الآيات 33-30).

{ فلْيَنْظُر الإنسانُ إلى طعامِهِ أنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًا ثم شَقَقْنَا الأرضَ شقًّا فأنْبَتْنا فيها حباً وعِنَباً وقَضْباً وزيتوناً ونَخْلاً وحدائقَ غُلْباً وفاكهةً وأبًّا مَتاعًا لكم ولأنعامكم } (سورة عبس : الآيات 32-24).

فعندما يقول سبحانه وتعالى : { متاعا لكم ولأنعامكم } فهذا هو حق الانتفاع الذي هو أمانة في عنق الإنسان عليه أن يحافظ عليها ويضمن انتقالها من جيل إلى آخر. فحينما نقول من جيل لآخر، فهذا لا يعني أن هذا الحق يخص فقط أجيال البشر. بل إنه يخص أجيال الكائنات الحية بجميع أنواعها.

يقول سبحانه وتعالى :

{ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم } (سورة الأنعام : الآية 38).

وهذا يعني أن جميع الكائنات الحية لها حق الانتفاع من خيرات الأرض. غير أن هذا الحق لن يكون ممكناً إلا إذا أدى الإنسان الأمانة المتمثلة في ضمان انتقال الانتفاع عبر العصور والأجيال، الشيء الذي يعني أن على هذا الإنسان بذل المزيد من الجهود لحماية وصيانة مصادر الانتفاع.

وهكذا، فإذا شعر الإنسان المعاصر بضرورة حماية مصادر انتفاعه من البيئة، فإنه لم يفعل إلا ما أمره الله به منذ أن وجد على سطح الأرض.

من خلال ما سبق، يتضح أن كل ما جاء به الفكر البيئي المعاصر من مفاهيم لتغيير نظرة الإنسان للبيئة قد أشار إليها القرآن الكريم من خلال العديد من آياته المجيدة، سواء تعلق الأمر بمفاهيم شمولية البيئة والتوازن ومحدودية الموارد وتنوع الحياة والغائية أو حماية البيئة.

إن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الله عز وجل بين لعباده في كتابه العزيز التوجهات الكبرى والمبادئ الأساسية العامة التي عليهم أن يتبعوها لتنظيم تعاملهم مع البيئة. وهذا يعني أنه سبحانه وتعالى وضع الإطار العام الذي يجب أن تنبثق منه تصرفات الإنسان داخل البيئة وتصب فيه. وحينما نقول إن الله رسم لعباده التوجهات الكبرى والمبادئ الأساس، يجب أن لا يَعُدَّ هذا بمثابة تقييد لأيدي الإنسان. بل العكس، إن الله ترك لعباده حرية التصرف ولكن على أن يبقى هذا التصرف فيما رسمه الله من حدود.

يقول سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :

{ وما مِن غَائِبَةٍ في السماءِ والأرضِ إلا في كِتَابٍ مُبِين إنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هُمْ فيه يَخْتَلِفون وإنه لَهُدىً ورحمةٌ للمومنين } (سورة النمل : الآيات 77-76-75).

إن القرآن الكريم ليس كتاباً في علم البيئة لكنه يشكل المنبع الأول والأخير الذي يجب أن يبنى عليه هذا العلم. والدليل على ذلك أن كل ما توصل إليه العلماء والمفكرون والفلاسفة البيئيون المعاصرون من أفكار ومفاهيم متضمن بكيفية أو بإخرى في القرآن الكريم. وهذا خير دليل على أن كتاب الله هو أحسن منطلق وسند يمكن الاعتماد عليه لوضع أسس إسلامية لتنمية مستدامة هادفة. من أجل هذا، يكفي التمعن في الآيات الكريمة العديدة سالفة الذكر. لقد تطرقت هذه الآيات لجميع القضايا والمفاهيم البيئية التي تشغل حالياً بال المجتمع البشري والمفكرين المعاصرين. وهكذا، فإن كل مفهوم تم تفسيره من خلال آيات القرآن الكريم يقابله مبدأ أساس عام يمكن استنباطه من نفس الآيات. فمفهوم شمولية البيئة يقابله مبدأ وحدة الكون، ومفهوم التوازن

يقابله مبدأ الميزان، ومفهوم محدودية الموارد يقابله مبدأ المقدار، ومفهوم تنوع الحياة يقابله مبدأ تنوع الخلق، ومفهوم الغائية يقابله مبدأ التسبيح، ومفهوم حماية البيئة يقابله مبدأ حراسة الأرض. هذه المبادئ التي تم استنباطها من الذكر الحكيم والتي يمكن أن تكون أساساً لتنمية مستدامة ذات توجه إسلامي. والمقصود هنا بالتنمية المستدامة ذات التوجه الاسلامي لا يعني أن للإسلام تنمية مستدامة خاصة به أو أنه يرفض مفهوم التنمية المستدامة كما هو متعارف عليه اليوم. بل المقصود هو أن الإسلام له رؤية فعالة ومتميزة في هذا المجال.

## 3-منهج الإسلام في حماية البيئة

لقد تميز المنهج الشرعي في حماية البيئة بالشمولية والتكامل وذلك أنه بني على ثلاث ركائز أساسية وهي:

- المنهج الإيماني الإعتقادي
- المنهج التثقيفي الإرشادي
- المنهج التشريعي التأصيلي

**أولا: المنهج الإيماني الإعتقادي**

لقد جعل الإسلام الحفاظ على البيئة وحمايتها جزءا من التلوث من عقيدة المسلم وإيمانه بربه (عز وجل)، وجعل الإخلال بها أو الفساد فيها خروجا عن مقتضى هذا الإيمان ، وإنذارا بوقوع الهلاك والدمار. ويتجلى هذا المنهج واضحا عندما يربط بين مدى إيمان الإنسان واستقامته وبين صلاح بيئته أو إفسادها ، حيث جعل السبب الحقيقي وراء مشكلات البيئة وتلوثها هو ظلم الإنسان ، وبعده عن منهج الله .

استشهد بها الباحثون في الموضوع والتعرف إلى دقة ذلك الاستشهاد أو التحكم فيه لمجرد اشتمال النص على كلمة ( الفساد ) أو ( الإفساد ) عموما أو الإفساد في الأرض أو المفسدين ..... الخ

لا يخفى أن الفساد أو الإفساد وحتى الإفساد في الأرض المقصود الأساسي منه هو ضد الإصلاح والإصلاح المعنوي فهو مخالفة أمر الله ، والتنكب عن شرعه والمعصية لما جاءت به رسله . أي انه الفساد الديني والأخلاقي والاجتماعي لكنه – كما نبه بعض الباحثين – لا يقتصر عليه ، فيشمل الإفساد المادي للبيئة ومواردها .

والجدير بالذكر أن بعض الآيات جاء في سياقها ما يؤكد هذه الشمولية، إذا لم تحمل على خصوصية الإفساد المادي ، مثل قوله تعالى (( وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ))[17] وقد سبقت الإشارة إلى ذلك العموم في المراد بهذه الآية الإمام الطبري فيما نقله عن

السدي سبب نزولها وهو قتل حمر لقوم من المسلمين وإحراق زرع لهم .ولا يخفى أن ذلك التعميم يشمل الإفساد البيئي.

فيدلنا ما سبق على أن الأزمة البيئية التي تواجه العالم في وقتنا الحاضر، تعود في الأساس إلى الأزمة الروحية الأخلاقية ، ففساد البيئة إنما هو من فساد الإنسان وأن صلاح البيئة لا يكون إلا بصلاح الإنسان ، ولن يصلح الإنسان إلا بصلح نفسه وقلبه، ولا صلاح لهما إلا بالدين والإيمان والاهتداء بهدي الرحمان.

**ثانيا:المنهج الإرشادي في حماية البيئة**

وفيما يلي ما طرحه د.عبد المجيد النجار من وجوه حفظ البيئة [18]سواء بالإبقاء عليها سليمة بحفظها من التلف أو التلوث أو فرط الاستهلاك أو بحفظها بالتنمية .

**أ- حفظ البيئة من التلف**

من المنهي عنه نهياً مغلظاً في التعاليم الإسلامية الإتلاف للبيئة الذي يتمثل في احد نوعين : الإتلاف الذي يفضي إلى عجز البيئة عن التعويض الذاتي لما يقع إتلافه فيؤول إلى الانقراض والإتلاف قي استخدام مواردها ولو كان ذلك الإتلاف استهلاكا في منفعة .

وإنما طلبت الشريعة الإسلامية صيانة البيئة من هذين النوعين من التلف لما يفضي إليه كل منهما من خلل بيئي يعطل كفاءة البيئة عن أداء مهمتها في إعالة الحياة ، إذ كل شي فيها قدر تقديرا في سبيل تحقيق تلك الإعالة ، ومن النصوص الناهية عن إتلاف البيئة بنوعيه قوله تعالى : (( وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد )) ، وقوله ρ في النهي عن إتلاف الحيوان " من قتل عصفورا عبثا عج إلى الله يوم القيامة يقول " أن فلانا قتلني عبثا ولم يقتلني في منفعة " [19]وقوله ρ " دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض " [20] وكذلك الأمر بالنسبة لإتلاف النبات ، فقد قال صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن ، " من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار " [21].

**ب- حفظ البيئة من التلوث [22]**

لا يكون الفساد في الأرض بإهلاك عناصر البيئة الطبيعية إهلاكا عبثياً أو إهلاكا قارضا فحسب، وإنما يكون الفاسد أيضاً بتلويث البيئة بما يقذف فيها من عناصر مسمومة ، أو بما يغير من النسب الكمية أو الكيفية لمكونات البيئة التي قدرت عليها في أصل خلقتها ، فان ذلك يفضي إلى تعطيل العناصر البيئية في ذاتها أو في كيفياتها عن أن تؤدي دورها النفعي للإنسان ، بل قد تحولها هي نفسها إلى عناصر وكيفيات مسمومة ،

وإذا أداؤها البيئي يتحول من نفع للحياة ولحياة الإنسان خاصة إلى إضرار بهما من حيث وجدت البيئة أصلا من اجل إعمار الحياة ، وتمكين الإنسان من أداء مهمة الخلافة .

ومن أبين الأحكام المتعلقة بصيانة البيئة من التلوث ما جاء من تشريع يوجب على الإنسان الطهارة في حياته كلها ، ابتداءا من طهارة الجسم إلى طهارة الثوب والآنية والمنزل ، وانتهاء بطهارة الشارع والحي والأماكن العامة . وقد ارتقت الأوامر الشرعية في هذا الشأن إلى أن أصبحت تمثل مبدأ أساسيا من مبادئ السلوك ، بل انها ارتبطت بمفهوم العبادة ارتباطا أصبح معه التطهر بمفهومه العام جزءا من عبادة الله عالى وناهيك عن ذاك أن الصلاة وهي رأس العبادات تتوقف في صحتها على تحقق الطهارة في الجسم والثوب والمكان وقد قال تعالى في التطهر بمعنى عام (( إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ))[23].

ومن هذه الأحكام ذات الدلالة في صيانة البيئة من التلوث ما جاء في تشريع يوجب التطهير للاماكن الخاصة والعامة وصيانتها من كل ما عسى أن يلوثها من مختلف الملوثات، فقد قال صلى الله عليه وسلم (( إذا أراد أحدكم أن يبول فليرتد لبوله ))[24] وذلك على معنى أن يتخير لتصريف بوله موقعا تمحي فيه آثاره بسرعة فلا يكون له تلويث يضر بما حوله ، كما قال صلى الله عليه وسلم أيضا : (( اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد،وقارعة الطريق،والظل )[25] ففي هذه المواضع يكون البراز أكثر تلويثا للبيئة إذا هي مواقع حركة من شأنها أن تزيده انتشارا ، فورد النهي عنها منعاً للتلوث ، وفي هذا السياق قال النبي صلى الله عليه وسلم أيضا (( لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه ))[26] وذلك لما يتسبب فيه هذا الصنيع من تلوث المياه وعفونتها .

**ج- حفظ البيئة من فرط الاستهلاك**

إن كل كائن حي في البيئة حياته أن يكون من مواردها استهلاك مقدرة بالدورة الكبرى ، محسوب في قيام توزانها ودوامه ، والإنسان لا يخرج عن هذا القانون البيئي إلا أن المهمة التي كلف بها لتكون غاية لوجوده تقتضي لكي ينجزها أن يكون استهلاكه من مقدرات البيئة أوفى من الاستهلاك لمجرد الحفاظ على الحياة مثل سائر الكائنات الحية الأخرى ، إذ هو مكلف بالتعمير في الأرض وهي غير مكلفة بشيء ، وهذا الاستهلاك الزائد الذي تقتضيه مهمة الإنسان في الحياة هو أيضا مقدر في التكوين البيئي، محسوب في قيام توازنها ودوامه .

والنصوص الشرعية كثيرة في ذم التبذير والإسراف وهو الإنفاق في غير حق سواء في الماء أو الشجر أو سائر موارد البيئة ، وفي الاقتصاد والتوسط بين الإسراف والبخل ولاسيما فيما هو محدود الكمية غير قابل للتكاثر .

**د- حفظ البيئة بالتنمية**

لما كانت بعض الموارد تصير بالاستهلاك إلى نفاد ليس له جبر فان التشريع الإسلامي جاء يصونها بالترشيد في ذلك الاستهلاك وعدم التبذير كما بيناه آنفا . ولكن تلك الموارد التي تصير هي أيضا إلى النفاذ ولكنها تقبل الجبر لذا جاء التشريع الإسلامي يوجه إلى صيانتها من النفاد بترشيد الاستهلاك فيها أيضا فانه جاء يوجه إلى صيانتها بطريقة أخرى أكثر فعالية في الصيانة ، وهي طريقة التثمير والتنمية ، وذلك ليكون ما يستهلك منها مخلوفا على الدوام بما ينمي ويثمر .

وفي هذا السياق جعلت الشريعة الإسلامية زرع الزروع وغرس الأشجار بابا عظيما من أبواب الأجر لا ينقطع ن فقد قال صلى الله عليه وسلم : (( ما من مسلم يغرس غرسا إلا كان ما أكل منه له صدقة ، وما سرق منه له صدقة ، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير منه فهو له صدقة ، ولا يرزؤه احد إلا كان له صدقة ) [27]وكفى بذلك دافعا إلى التنمية البيئية في المجال النباتي .

ومن التشريعات الإسلامية في تنمية البيئة ما جعل في ملكية الأرض إذا كانت مهملة من أن إحياءها بالزرع هو السبب الذي يبتغى منه ملكيتها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم (( من أحيا أرضا ميتة فهي له ) ) [28]وما جعل من أن تعطيل تلك الأرض عن دورها الإنمائي للثروة النباتية قد يكون سببا في نزع ملكيتها من صاحبها ، قد قال صلى الله عليه وسلم (( من كانت له ارض فليزرعها أو ليمنحها أخاه )) وحينما يعتبر إنماء البيئة النباتية سببا لملكية الأرض فان ذلك يكون دافعاً قويا لتحقيق هذا الإنماء لفطرية ما في النفوس من حب التملك عامة وتملك الأرض بصفة خاصة .

**ثالثا: المنهج التشريعي في حماية البيئة**

للتعرف إلى المكانة التي تحتلها سلامة البيئة وحفظها من المقررات الشرعية نتناول ذلك من منظورين شرعيين :

أولهما : أصول الفقه والمبادئ العامة ، وبخاصة مقاصد الشريعة

والثاني : أحكام الفقه الإسلامي المتعلقة بالبيئة ، من حيث الحكم التكليفي الإجمالي ، وكذلك أهم التطبيقات لمفردات البيئة التي سبقت الإشارة إليها .

**أ- سلامة البيئة وحفظها في مقررات أصول الفقه [29]**

المقرر أن للشريعة مقاصد يراد تحقيقها من الأحكام الشرعية الفرعية وقد اهتم علماء أصول الفقه بتحديد المقاصد الشرعية الأساسية التي شرعت لها الضروريات والحاجيات والتحسينيات، مما هو معلوم وغني عن البيان وقد اجتهدوا في تحديد تلك المقاصد وغالبهم انتهوا لحصرها في خمسة مقاصد وهي : حفظ الدين ،وحفظ النفس، وحفظ العقل،وحفظ النسل، وحفظ المال،وزاد بعضهم حفظ النسب فبلغت ستة ، وبهذا

المقصد السادس المزيد ظهر أن هذا الحصر ليس قطعياً بل هو مبدئي، وأن الباب مفتوح لإضافة مقاصد أخرى .

- **حماية البيئة من مجالات مقصد الاستخلاف في الأرض .**

لقد أورد د. جمال الدين عطية بين المقاصد التي تخص الإنسانية " تحقيق الخلافة العامة للإنسان في الأرض " وان هذا المفهوم يمثل أرضية مشتركة صالحة للتعاون على أساسها برغم تباين العقائد والأجناس واللغات ، وأنه من مجالات التعاون في عمارة الأرض سواء في مجال حماية البيئة ، أو مكافحة الجريمة ، أو في مجالات التنمية المختلفة الزراعية والصناعية والخدمية وغيرها .

- **سلامة البيئة وحفظها احد مقاصد التشريع**

هنالك منطلقان لإثبات هذه الفكرة وهما :

(1) اعتبار ذلك مقصداً شرعياً مضافا إلى ما سبق تقريره من المقاصد الخمسة .

(2) اعتبار ذلك مقصداً مستنداً إلى المقاصد الخمسة المعروفة ( متمما للواجب ) .

(3) باعتبار أن مقصد رعاية البيئة تتوقف عليه المقاصد الأساسية ) وإهماله يتنافى مع حفظها .

وفيما يلي إيضاح ذلك :

1. اعتبار سلامة البيئة مقصداً شرعياً بذاته :

ينطبق على ( سلامة البيئة وحفظها ) لأنه يتوقف عليه التمكن من تحقيق الهدف من أداء التكاليف الشرعية ، وهو "" إخراج المكلف من داعية هواه ، ليكون عبداً لله اضطراراً "[30] فان البيئة إذا لم تكن سليمة نقية خالية ستعوق المكلف عن أداء ما أوجبه عليه الله من حقوق لربه تعالى ثم لنفسه وأهله ومجتمعه ومن يشاركون في الحياة .

2. اعتبار سلامة البيئة مقصداً متمماً للواجب :

بالتأمل في الأثر يترتب على سلامة البيئة وحفظها يتبين انه يرجع إلى حفظ البيئة وحفظ النفس والنسل فان أكثر العبادات والواجبات الدينية والدنيوية لا يمكن أداؤها أصلا أو على الوجه الصحيح إلا إذا توافرت البيئة التي يعيش فيها الإنسان ويتعامل مع عناصرها من ماء نقي طاهر ، وجو صحي يبقي على قوة بدنه وغذاء نافع لا يضعف بدنه ويلحق به الأمراض والأعراض السيئة التي يورث بعضها لسلالته

ويقرر احد الفقهاء المعاصرين أن صحة الإنسان التي تهدف الشريعة إلى حفظها وصونها تقتضي أن كل تصرف سلبي في البيئة يؤثر سلباً على صحة الإنسان غير مقبول شرعاً لأنه يتنافى ومقاصد الشريعة [31].

وإذا كان الطرح المعاصر السابق لمكانه حماية البيئة على أنها من مجالات التعاون لتحقيق مقصد الاستخلاف في الأرض فان هناك طرحاً اقوي لموقع حفظ البيئة وهوانه مقصد أساسي ( ضروري ) من مقاصد الشريعة ، وذلك ما قرره الدكتور عبد المجيد النجار ، وفيما يلي جوانب من بياناته لتقرير تلك الدعوى فهو بعد أن أشار إلى أن على الإنسان أن ينجز مهمة الخلافة في الأرض متمثلاً في كل ما له علاقة بالحياة الإنسانية من ارض وما عليها من حيوان ونبات وجماد وما يحيط بها من غلاف جوي ومن سماء وما فيها من كواكب و وإجرام تبين أن لها علاقة بالحياة وتأثيرا فيها قال[32] :

" المتأمل في أحكام الشريعة يجد أن كثيراً منها إنما شرع لتحقيق مقصد حفظ البيئة الطبيعية أن تعمل فيها يد الإنسان بتصرفات تخل بنظامها، أو تعطل مقدراتها على أن تكون صالحة للحياه منمية لها ، أو تربك توازنها الذي تقوم عليه عناصرها المختلفة ، وقد جاءت تلك الأحكام متضافرة كلها على منع الإنسان من ذلك ، وأمره بان يبقى على الطبيعة صالحة كما خلقها الله ، وان يمارس عليها مهمة الخلافة على ذلك الوجه من الصلاح ، وما فتئت تلك الأحكام تظهر أهميتها وتتأكد الحكمة في أوامرها ونواهيها ، وذلك كلما أسفرت الأزمة البيئية عن وجهها الكالح ، وتعالت نذرها بالمصير البائس للحياه ، وذلك هو مبرر أن نفرد هذا المقصد الضروري بفصل مستقل من فصول المقاصد الضرورية للشريعة الإسلامية .

والمنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة هو الأمر بالتوسط والاعتدال في كل تصرفات الإنسان، باعتبار الإسراف من أهم عوامل الخلل والاضطراب في منظومة التوازن البيئي المحكم الذي وهبه الله سبحانه وتعالى للحياة والإحياء في هذا الكون . وهذا لا يعني بطبيعة الحال أن يقف الإنسان مكتوف الأيدي إزاء النظم البيئية المحيطة به ، أو أن يعطل أداء واجب التعمير ( التنمية ) الذي تقتضيه أمانة الاستخلاف في الأرض ولكنه يعني أن يتعامل الإنسان مع هذه النظم البيئية بما يمكنه من تطوير حياته دون إسراف في استخدام الموارد الطبيعية أو جور على حقوق الآخرين .

هذه نظرة مختصرة جدا عن نظرة الإسلام للبيئة حفظا ورعاية، ولو أردت الإسهاب لسطرت عشرات الصفحات، ناقلا دررا عن ديننا الإسلامي الحنيف، وممارسات المسلمين في حياتهم، مما يعد سبقا لكل قوانين الدنيا بأسرها حفاظا على البيئة، ورعاية وتنمية لها.

---

[1] سورة البقرة : الآية 22.

[2] سورة البقرة : الآية 29

[3] سورة البقرة : الآية 117 .

[4] سورة البقرة: الآية 164.

[5] سورة البقرة : الآية 255.

[6] سورة آل عمران : الآية 189.

[7] سورة لقمان : الآية 20.

[8] سورة الرعد : الآية 25.

[9] سورة الروم : الآية 41.

[10] سورة البقرة : الآية 60.

[11] سورة المائدة : الآية 64.

[12] سورة الرعد:الآية 8.

[13] سورة فصلت : الآية 10.

[14] سورة الشورى : الآية 27.

[15] سورة المؤمنون:الآية 18.

[16] سورة المائدة : الآية 17.

[17] سورة البقرة : الآية205 .

[18] من كتاب مقاصد الشريعة د.عبد المجيد النجار مستخلص الصفى 212 – 229.

[19] أخرجه النسائي ، كتاب الضحايا ، باب من قتل عصفورا .

[20] أخرجه البخاري من كتاب بدء الخلق / باب إذا وقع الذباب في طعام أحدكم .. وخمس من الدواب يقتلن في الحرم.

[21] رواه ابو داوود – كتاب الأدب / باب قطع السدر وقد اتجه بمعناه إلى أن القطع المتوعد فيه هو الذي يكون عبثا وظلما بغير حق.

[22]التلوث البيئي : كل تغير كمي او كفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية ، لا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابه دون خلل ( البيئة ومشكلاتها ، رشيد الحميد ومحمد سعيد صباريني 156ط الفلاح الكويت 1986 وقد عرف ( خبث الوسط البيئي ) بأنه تغيير في الخواص الطبيعية والكيميائية والبيولوجية المحيطة بالإنسان من ماء ... الخ والذي قد يسبب أضرارا لحياه الإنسان وغيره من الكائنات الحية ( من موقع وزارة الأوقاف الكويتية ) .

[23] البقرة 222.

[24] أخرجه أبو داود في سننه كتاب الطهارة باب الرجل يتبرا لبوله.

[25] رواه أبو داود – كتاب الطهارة / باب المواضع التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن البول فيها.

[26] أخرجه البخاري – كتاب الوضوء / باب البول في الماء الدائم وينظر عن دور الماء الملوث في نقل الأمراض حيث (( الماء والإصحاح في الآلام د.عبدالفتاح الحسيني الشيخ ) منظمة الصحة العالمية 1988 وعن التلوث بسبب الماء والعوامل الحية والأسمدة والكيماويات العضوية بحث ( صحة البيئة في الإسلام ) د.هيثم الخياط ( سلسلة الهدي الصحي ) منظمة الصحة 1995 وبحث الغذاء والبيئة نزار النصف وبحث لأمراض والوراثة والبيئة د.احمد محمد الصباريني .

[27] أخرجه مسلم كتاب المساقة فصل الغرر.

[28] أخرجه الترمذي.

[29] ينظر في شان المقاصد الشرعية وأصول الفقه كتاب " علاقة مقاصد الشريعة حول الفقه " للشيخ د. عبد الله بن بيه نشر مؤسسة الفرقان للتراث 2006م .

[30] الموافقات للشاطبي 2/100.

[31] الإسلام والبيئة خطوات نحو فقه بيئي ، للشيخ حسين الخشن 23 نشر دار الهادي بيروت 2000.

[32] مقاصد الشريعة بأبعاد جديد د. عبد المجيد النجار 209.